النسر

قصة بقلم سامي عطفة

١ – تحلق الاطفال حول جذع سنديانة قديمة ، على طرف الادغال . وقد كفوا عن الحديث خلافاً لعادتهم أيام الربيع السعيدة ، وانصرفوا بذهول شديد الى تأمل الألوان الذهبية المستديرة التي كانت تشع من جنح طائر ضخم تربع بهدوء عظيم على قمة الجبل الصخري . وكان لا يتحرك ، بل ولا يدير رأسه ، وكأنه نصب تذكاري اقيم على هام الصخر رمزاً الى شيء جليل تخطاه الزمان . وكانت تحيط به هالة من الغرابة ، تميزه عن سائر أشياء المنطقة . ربما ادرك هو ذلك فما عاد يشارك في الحياة ، بل اكتفى بأن يكون شاهداً عليها . وسواء ، كان عنده مشهد الفواجع والافراح ، ولكن شيئاً ما ، كان يجذبه ليحيا هنالك .

وكما انقطع هو عن ان يشارك في الجو العام للحياة ، فكذلك انصرفت عنه مواكب الطير ، وجفاه الناس : بل وصاروا يحسبونه وزراً على حياتهم ، ووصلوا بينه وبين الأشياء الخفية في الطبيعة ، فغدا عندهم رمزاً لقوى شريرة ، يتطير القرويون منه ، ويروون عنه قصصاً رهيبة ، مفادها : ان مخلوقاً سحرياً – ربما كان شيطاناً صغيراً – قد حل في جسد ملك الجو ، النسر المتوحد . وكان بعض بسطائهم يحملونه تبعة القحط في السنين الشحيحة ، وقد تآمروا مرات من قبل ، لاغتياله ، ولكنه كان ذكيا جداً حتى أنه كان يتخلص من مضايقتهم له بسهولة تامة . كان يقضي النهار بكامله على القمة يتأمل الأشياء ، وعند مطلع الليل يروح ليرجع بعيداً في مكان مجهول ، ولم يكن يعمل شيئاً طوال النهار ، وقد هرم لأنه عاش المزيد من السنين . وعلى مر السنين غدا كابوساً يضغط حياة القرويين . كانت حياته غريبة شاذة ، وما عرف عنه القرويون سوى انه « شيء لانفع فيه ابداً ، قدحل فيه روح مفزع ، وانه يجب ان يموت ، ويتمتع القرية السلام » . وقد قال احدهم مرة : « حقاً انه حيوان قادر على ان يعطي الانسان امثلة سيئة ، فهو يمضي يومه متبطلاً ، وكأنه سليل فئة رفيعة من فئات هذا العالم » ، وعقب آخر على ذلك : « صحيح ذلك ، اجمالاً ، ليس الهول في ان نحيا البؤس ، وان نكون بؤساء ، لا ! بل الهول في ان يكون هنالك من يسخر من بؤسنا ، ومن حياتنا على هذه الصورة ، ينبغي ان يتدبر صالح وسيلة ما تمكنه من اصطياده بسهولة تامة » . ومع ذلك : فان الأطفال وحدهم إصروا على ان يحبوا النسر محبة خالصة .

٢ – وكذلك فانني كنت احب « شيطاننا » محبة خالصة ، لم تزل تخفق في قلبي مع ذكرياتي العزيزة . ومنذ ان سمعت الروايات تتواتر : « لقد وفد النسر على المنطقة منذ زمان بعيد ... » « انه آية من آيات الشر » « عند الغروب يطير الى نجم الأخوات السبع ... » « لأجنحته حفيف ثقيل ، يعيد الى الروح ذكريات احزانها » . قلت لنفسي مرة : « انه لآية في وحدته ايضاً » .

كنت عندئذ حدثاً يتأمل بريق الأجنحة المتألق ، ولكنني فيما بعد ادركت ان بريق اجنحته لم يكن الشيء الوحيد الذي يجذب النفس ، لا ... انه شيء منه يؤثر ، تأثير الطلل الخالي بروعته وحياته ، وقدرته على الانسجام مع الروح .

لقد تمخضت فكرتي عن الوجود هنالك ، عند طرف الادغال ، وكانت تنبثق في خاطري على مقربة من النسر ، انعكاسات الماضي . ان انعكاس الروح بين جيل وجيل قوس كقوس قزح ، نهايتاه تبعدان بعداً سحيقاً ، لكنهما مع ذلك متصلتان .

كنت اتخيل اعمال السحر والكهانة في بابل وفارس ، والصلاة للشمس عند شروقها في الهند ، وعبادة الالهات الاثيريات في اليونان ، حيث كانت تحرق لها الضحايا البشرية ، وتقدم الضحية راضية ، بل مغتبطة الى المذبح ، وتعرف انها عما قليل ستحترق على الجمر فداء للربة ، للعقيدة ، بين روائح البخور المحترق ، والند ، والعنبر ، تنذر النفس الحية . فما ترى يدفع الانسان فداء لحياته ؟ . ان الانسان قد يدفع الكثير ، فهنالك من « دفع روحه ثمناً لوجه جميل » . « ومن تنازل عن روحه للشيطان ، وقد ندم ، لقاء تجارب شهوانية حمقاء ... وهنالك من قذف بنفسه الى الخطيئة من اجل حب خائب ... » .

ان الملذات تفنى ، فهل يعني ذلك ان لا جمال لها ؟ ان الأزاهير الغضة الرقيقة الحواشي تذبل وتفنى ، فهل يفنى جمالها ؟ ان الحاضر يتدرج على طريق الزمان ، فهل يمكن لنفوسنا الا تحزن عليه . . . . ؟

وهذه الحياة التي وهبناها دفعة واحدة ، حين نستغني عنها اليمكن ان نجد الشفاء بالتطلع بعيداً الى عالم مزهر اوفر سعادة واطمئنانا ؟ .

المشكلة ، هي المشكلة دائماً ، قضية لا تجدي معها الحلول . وهي مع ذلك جديدة ابداً مثل الخطيئة التي تفتن في المرة الاولى ، كما تفتن في المرة الثانية ، والثالثة وما بعدها .

عندما تحزن ملوبنا ، وتحترق حزناً على الماضي ، وعندما نيأس من اللحظة الفارغة التي نحياها ، تنصب أحداقنا على ما سوف يأتي مؤملين منه الشفاء .

ان ماضينا بعيد ، ومستقبلنا اكثر بعداً ، كلاهما مظلمان . فمن ترى قد دفع بنا الى هذه الظلمة الابدية ؟

هل يكمن المستقبل في الماضي فنقول « لا شيء جديد » ؟ ام انه يولد من عالم مجهول فيكون بطبيعة الحال « شيئاً جديداً » ؟ ؟ .

هل يكمن كل شيء في الانسان فيكون كل أمر معقولاً ، ام ان كل شيء كامن في الطبيعة فيكون الامر « غير معقول » أبداً ؟؟

وعقلنا ما زال ينافس القلب على انه الدليل الأمين لحياتنا .

٣ – على قمة الجبل الصخري ، وقف « الشيطان » متوحداً ينسكب عليه نور الشمس . وكانت مخالبه تلامس الصخر بأناة ولطف . واخذت ريح الجبال تسترسل هبوباً تعبث بصدره المتين . ولقد احنى هامته قليلاً كأنما كان يقاسي اوزاراً تصدع روحه ، وعلى وجهه تنطبع صورة الزمان الفاجعة . ان الوحدة ، والهدوء ، والزمان هي اسس الفاجعة .

ان كائناً ما يعمر كل هذا الزمان ، لا بد وأن تكون حياته مأساة ترتسم جذورها قابلاً ، قليلا ، في روحه حتى تسممها وتتركها شلواً امام الرياح العاتية ، حتى الانسان الذي ينعم عقلة بالنور يقتله احساسه بالوجود ، ويرى بغتة ، وقد أظلم عقله ، انه أمام الفناء ، كشفاء لا بد منه ، لأوجاع روحه .

ذلك كان شأنه تلك الصبيحة التي تفتحت فيها حياة الربيع . لقد كان شعور خفي ينبئه بأنه سيفارق مكانه الأثير الى غير رجعة ، وهذا هو السبب في ان لهفة حزينة كانت تطل من عينيه . وقد كان الاطفال الشيء الوحيد الذي يجذب بصره الى أدنى ، الى الحياة . فكان تأمله على طرف الأدغال يدخل على قلبه بعض السلوى ، لكنها سلوى المسافر الذي يدرك ، وهو

يودع احباءه ، انه وداعه الأخير . فكان قلبـــه يرتعش رعشات حادة ، وجعل يقبض كفيه ويبسطها .

وبينما يهب نسيم الجبال صعداً تسيل دمعتان كبيرتان من عينيه الصافيتين ، وتنحدران على خديه متمهلتين .

٤ – بين حين وآخر كانت اصوات فأس تهوي لتقطع بعض الجذوع ، ترسل رنينها في سماء الوادي ، فتشق سكون الظهيرة الشامل . ومن سفح بعيد يتموج الناي بلحن يطلقه احد الرعاة . وبدأ الفلاحون يرجعون الى القرية لينعموا هنالك بهدوء الظهيرة ، وليتفيأوا اشجار التوت النامية فوق المصاطب الحجرية . وقام بعض الأطفال ينصبون ارجوحة بين عودين من السنديان . وكانت شمس الربيع تصلي الأدغال لهباً فاتراً حين سمعت خطوات ثقيلة لشخص يعبر الدرب الظليل . وتبين الاطفال من بعيد شبح « صالح » الصياد الأول في قريتنا ، وكان يسير متفكراً ، وقد مر بالأطفال دون ان يرفع اليهم بصره ، خلافاً لعادته . فما عرف عنه انه كان يحب الاطفال حباً عظيماً ، وكان يدفع اليهم بين حين وآخر هـــدايا عجيبة من شحارير فاحمة السواد ، وحساسين متزينة بألوان سعيدة ، وهداهد ذوات اعراف مخملية.

لكنه ذلك اليوم ، عبر بهم متنكباً بندقية الصيـــد الرهيبة ، ومتمنطقاً بمدية هائلة. كان وجهه متجهماً يشف عن القسوة مما يضفي عليه مسحة من الرهبة العميقة . وذلك هو الدليل الدائم على ان في الأمر شيئاً على غاية الخطورة ، ولقد اسقط في يد الاطفال ، فوجموا يحملقون فيه عجباً من ظهوره بين آن وآخر بهذا المظهر الرهيب ، ولكن فراشة ملونة عبرت بهم في الوقت الملائم فأنستهم الصياد ، وقفز بعضهم يبغي التقاطها وهي ترف على الازهار.

كان ذلك عندما شرع يختفي وراء حافة الوادي .

٥ – وسار صالح شارد اللب ، وكانت تلك هي المرة الاولى التي فقد الصيد فيها قيمته الرائعة في نفسه . ومع ان اهل القرية اجموا على توليته شرف صيد النسر ، وطلبوا منه ذلـــك بالحاح عـــظيم ، فقد تذكر أنه لم يخطر بباله طوال السنين الخالية ان يصطاده . وتذكر ايضاً انه كان بعض الأحيان يجلس تعباً ، بعد رحلة مضنية ، على صخر قبالة النسر ليتأمله بغبطة عظيمة ، وكأنما هو رمز لفكرة عزيزة . وهكذا كان يرعى حرمته ، بل يراه ضرورة لا بد منها على القمة الصخرية .

وشرع يرقى سفح الجبل ، وكان الانحدار شديداً فتصبب العرق منه ، وسال على جبينه ، فكان يمسحه مرة ، ويسوي وضع البندقية على كتفه مرة أخرى . لقد كان شخصية غريبة تتألف من مجموع سمات لا انسجام بينها ، وكانت عيناه الرماديتان المعتمتان تتركزان في الشيء تركز ذهول وحيرة. وبينما كانت شمس الظهيرة تصب عليه سعيرها ، كـان يرقى ، مستتراً وراء الصخور ، منعطفاً في وهدة جانبية ويتسلل في سيره كي يتفادى رؤية النسر له . لكن النسر كان يراه ، ومع ذلك فما بدرت منه حركة تدل عـــلى الخوف او محاولة الهرب ، بل ظل يرنو الى الدنيا بتلك العين الكئيبة القلقة ، غير مكترث لما قد يحدث . وربما طافت بوجهه صورة غـامضة من الغضب المتكبر . وتقلصت مخالبه قليـــلاً حتى جرحت الصخر العتيق . « لقد امضى حياته دون ان يمكر احد صفوه ، أو يكدر توحده . فهو ابداً هادىء مستريح » . وعلى أية حال لم يتيسر للصياد ان يدرك ذلك .

ووصل بعد كثير من الحذر الى صخر يبعد عن القمة بعداً كافياً لرمي رصاصة ، وهنـالك وقف مضعضعاً ، تعباً . وأحس فجأة ان عيني النسر النفاذتين الحزينتين ، تتفرسانه ، وشعر عندئذ أنه لا يفعل اكثر من ان يتطفل على وجود علوي . ومن ثم استند على ذراعه وراح يتأمل الدنيا

وقد اصبح يعلو عليها علواً شاهقاً ، والدنيا في صمت لا يقطعه سوى هبوب الرياح ، والقرى من تحت ، وقطعان المواشي تدب على السفوح .

عندئذ تذكر الصياد كيف كان يجلس يتطلع الى النسر بعد رحلاته المضنيـــة .

٦ – سأذكر اشياء عن صيادنا لأنه ربما كان قد استعرض حياته في تلك اللحظة ، أو لأنني أؤمن انه قد فعل مثل ذلك .

انه فلاح بسيط ، ساذج القلب يمتاز ، كسائر ابناء قريتنا ، بخشونة سماته وقبح تأليفها . ولقد بدأ حيـــاته في مساعدة والده وإخوته على زراعـــة الأرض . غير انه كـــان يمضي اوقات فراغه في صيد العصافير بواسطة « القوس » ، ولكن حياته لم تكن تحمل معنى مميزاً لها ، بل كانت عادية تماماً إلا فيما يختص بالصيد . فقد اشترى بندقية ، وصار يلح الغابة في بعض الأحيان حتى مهر باصابة الهدف مهارة بينة ، واشتهر على صيادي القرية بقدرته على تعقب الطريدة والايقاع بها بسهولة محيرة . ومنذ ذلك الحين ترك شئون الارض لإخوته وانصرف الى الصيد بكليته ، فكان يغيب عن القرية طوال النهار ، ويعود بعد الغروب بصيد وفير . وازداد بعداً عن الحياة العامة حتى انه صار لا يحسن الحـــديث ، فاذا ما اضطر الى الكلام

اضطرب وتلكأ ووقع فريسة لحيرة شديدة . وبالرغم من انه غدا ممن يشار اليهم بالبنان فقد صار لا يعنيه ان يختلط بالناس ابداً . وقد حاولت أن أتعرف اليه وأن أكسب ثقته ولكن دون جدوى . فقد اخذ ينفر مني ، بل غدوت اكثر الناس اثارة لسخطه . وقد تساءلت يوماً : فيما اذا كان يمكن ان تكون مثل هذه الحياة المغلقة فارغة من اشياء تلفت النظر ؟ وفكرت يوماً « اذا استحال الكلام على انسان ، فان التفكير لا يمكن بحال ان يكون مستحيلاً عليه » .

٧ – اذن فقد كانت عينا النمر تستقران على الصياد ، وتتأملانه ببرود صارم . ووسد بندقيته على الحجر يرين عليها بنظرة متأملة عميقة . لقد كرس حياته لها ، ولقد اصاب الشهرة بصورة رائعة . ولكنه صار مع ذلك ، الى هذا الشيء الوحشي ، وعندما اسس اسرته فكر انه سينجو من قلقه ومخاوفه ، واحب اولاده وزوجته ولكنه كان يتهيب الحديث امامهم ، والتعبير عن محبته لهم بصورة ملائمة . فاذا فعل كان يتعثر في نطقه لدرجة فظيعة . وتذكر الكلمة الركيكة التي ما كان يحسن النطق بغيرها ، عندما يقدم هدية ما الى طفل ، وكيف كان ينطق بها على صورة وعيد أو انتهار « خذ ايها الطفل ! »

اذن فقد دفع ثمن ذلك من روحه ، وكان اذ يفكر بهذه الاشياء يشعر ان ضربات ثقيلة كانت تنزل على رأسه ، وان افكاره تدور على نفسها بصورة اليمة . انه غريب ، ولقد عاش وكأنما قد ضل السبيل في جحيم مظلم حزين .

وذلك الكائن المتوحد يعيش ايضاً ، بعيداً عن الحياة على شاكلته مستعصياً على الفهم ، وانه وان كان قد أتى مكانه ليقتله فانه يرى ان حياته مقدسة ... وما هو ، ما حقه حتى يحرم النمر عفويته في حياته . انه في الحقيقة ليحبه محبة خالصة وكفى .

كان يحس في تلك اللحظة سعادة ، لم تتدفق على روحه يوماً بمثل هذه الطراوة .

لقد تجرد من احزانه ومخاوفه ، وعاش لحظة خارقة . كان يشارك في حياة الاشياء ، حتى الصخور الصماء انبت لها حياة وعاش معها في داخل حياتها . ولقد ادرك ان حياته لم تكن الا فداء بسيطاً لم يشعر له بأية قيمة من قبل . لقد كان من الممكن ان يعيش على غير هذا النحو ، ولكنه لم يعد يطمع في ان يبدأ حياته من جديد ، بل انه راغب كل الرغبة في حمل حياته على كاهله دون تعب ولا شكاة ـ والتمعت عيناه ، وشحب وجهه شحوباً شديداً ، وتطلع الى النمر فألفاه لا يزال ينتظر .

٨ – لم يكن « صالح » جباناً ، ولكنه شعر بارتباك عظيم ، وجعل يقلب بندقيته بيديه ، وفي نفسه تخطر آلاف من الصور والمشاعر ، لكنها تمحي بالسرعة التي تمحي بها رسوم السحاب . وتطلع الى القمة فرأى النمر يتطاول اليه بعنقه ، وانه لعلى يقين من ان عملاً ما سينجز في قليل من الدقائق . واستدار ناحية السفوح الغربية فرأى الشمس تنحدر للغيب . لقد صارع نفسه طوال النهار : وفي النهاية لم يكن ثمة الا سحب وردية تزحف حثيثة فوق القمم : وبهجة كانت تملأ جوانب نفسه ...

* * *

غمرت الغيوم القمم جميعاً ، وكذلك قمة الجبل الصخري . وكان كل شيء قد اختفى وراء الغيوم . ولما عاد الصياد عند منتصف الليل ، ظهر انه قد ترك بندقيته ومديته الرهينتين في مكان ما . ولما رأى القرويون ان النمر لم يكن على قمته صباحاً ، تذكروا انهم سمعوا عشاء ، بينما كانوا يسمرون في الساحة العامة ، حفيف اجنحة ثقيلة تعبر الظلام باتجاه نجم «الأخوات السبع» .

سلمية – سوريا — **سامي عطفه**

صدر حديثاً :

في سلسلة كنوز القصص الانساني العالمي

أفول القمر

للكاتب الاميركي العظيم جون شتاينبيك

قصة إنسانية صارخة حكم النازيون على صاحبها بالاعدام لانه صوّر فيها كفاح الشعب النرويجي للتخلص من نير الغزاة الألمان في الحرب العالمية الأخيرة .

نقلها إلى العربية الأستاذ

منير البعلبكي

الثمن ليرة ونصف — دار العلم للملايين

دراسات ادبية ونقد

صدرت عن دار المكشوف ، بيروت

محاولات في فهم الادب	**للطفي حيدر**
الفصول الاربعة	**لعمر فاخوري**
الشعراء الفرسان	**لبطرس البستاني**
الرؤوس	**لمارون عبود**
الياس ابو شبكة	**لنخبة من الادباء**
الحجاج	**لعبد اللطيف شرارة**
صقر لبنان او احمد فارس الشدياق	**لمارون عبود**
الفكر العربي الحديث	**لرئيف خوري**
نقد الشعر في الادب العربي	**لنسيب عازار**

الاسلام في العالم

١ – المسلمون في المتوسط الشرقي .
٢ – المسلمون في آسيا .
٣ – المسلمون في المتوسط الغربي وافريقيا

دار المكشوف ، بيروت